(٦)

بلا قدوة ولا أصول!*

من نحو العامين فيما أذكر نشرت فى الصحف قصة فى ثلاث حلقات أعجبت أهل التليفزيون فاشتروا منى الحق فى إخراجها رواية مسلسلة. وافقت وعهدوا بها إلى كاتب سيناريو شاب ليكتب السيناريو، واشترطت عليهم أن أقرأ السيناريو مجرد قراءة قبل أن يشرعوا فى إخراجه. وسرهم ذلك، وبعد ثلاثة أشهر اتصلوا بى وقالوا إن كاتب السيناريو فلانا فرغ من عمله وسيمر بى فى البيت لألقى نظرة على ما فعل.

وعندما ناولنى السيناريو وجدت أنه صنع من قصتى مسلسلا من سبع حلقات، فاستأذنته فى يومين أقرأ فيهما ما كتب فلم ير فى ذلك بأسا. وأتانى بعد ثلاثة أيام فقلت له:

– ما هذا الذى فعلته يا فلان؟

– ألم يعجبك؟ لقد بذلت فيه جهدًا عظيما.

– المسألة ليست مسألة أنه يعجبنى أو لا يعجبنى ولكنى أسألك: أين قصتى هنا؟

– إن قصتك صغيرة، وقد رأيت أن أجعل منها مسلسلا فى سبع حلقات.

– ولكى تصل إلى هذا الحجم أضفت من عندك اربع حلقات، واخترعت قصة بعيدة جدا عن قصتى، وحاولت أن تربط القصتين فلجأت إلى مد خيوط ضعيفة لا يكاد يراها إنسان، والنتيجة أن قصتى ضاعت.

– لا يا سيدى لم تضع، إنما هذا هو فن السيناريو.

---

*نشرت هذه المقالة فى ١٨ فبراير ١٩٩٠م.

– يا بنى، لا تتصور أننى لا أعرف ما هـو السيناريو أو كيف يصنع، فقد قرأت فى الصيف الماضى أحسن كتاب باللغة الإنجليزية فى هـذا الفن وهو كتاب هوايتهيد، أندرو هوايتهيد، ولابد أنك تعرفه.

– لم اسمع به ياسيدى، ثم إننا لا نتعلم صنعتنا من الكتب، بل نحن درسناه فى معهد السينما وامتحنا فيه، ثم مارسنا العمل وتعلمنا.

– مع احترامى لدراستك فى المعهد وتدربك فى العمل اقول لك إن القيام بعمل السيناريو لقصة ليس معناه أن تخترع أنت قصة تضيفها إلى الأصل، فيصبح المتفرج أمام روايتين، وقصتك أخذت الحلقات الأربع الأولى فضاعت قصتى بذلك.

– يا سيدى، هذه هى طريقتنا فى عمل السيناريو، وأنا لا أنفق من عمرى ثلاثة أشهر من العمل لكى آخذ فى النهاية أتعاب ثلاث حلقات وصدقنى إن هذه طريقتنا فى عمل السيناريو وكسب حياتنا منه. وقد عملت السيناريو لفلان وفلان وفلان وأصبحت مشهورا فى ذلك العمل.

– لقد قلت لك يا عزيزى إننى أحترمك وأحترم دراستك وعملك، ولكن ذلك لا ينسينى نفسى، فأنا أحب نفسى وأحترمها كما أحترمك، ولكن صدقنى إن عملك هذا لا يمكننى قبوله ولو كنت أعرف أن هذه طريقتكم لكتبت أنا السيناريو بيدى وأرحت نفسى.

– ولماذا لم تكتبه؟

– لأنهم قالوا لى إن هناك ناسا موهوبين يكتبون هذه السيناريوهات، ومادام الأمر كذلك فقد تركتهم يسيرون بعملى على أسلوبهم الذى جروا عليه.

فاعتدل فى مجلسه ثم قال: هذه هى طريقتنا يا سيدى، وقد كتبت السيناريو وأخذت أتعابى، وتستطيع إذا أردت أن تتفاهم مع التليفزيون، أما أنا فقد قمت بعملى وأخذت أتعابى وفرغت من الموضوع.

– الحمد لله أنك خرجت من الموضوع، وسيكون لى مع التليفزيون كلام، ولكن قل لى قبل أن تنصرف: إذا كان هناك انتقال فى موضوع من الموضوعات الثقافية، فمن يأخذ من من؟

– هل أنا الذى مارست الكتابة والعمل الثقافى والأدبى من وقت ربما كنت أنت لم تولد فيه أخذ منك؟ أليس المعقول وأنا من الجيل السابق عليك أن أكون أنا قدوتك، أم تصر أنت على أن تكون قدوتى؟

– هذه ليست مسألة قدوة يا استاذ هذا فن جديد لم تكونوا أنتم تعرفونه.

– قلت لك أننى أعرفه وسترى كيف اعيد كتابة ما فعلت أنت. إنما أنا أدهش أن مسألة القدوة قد انتهت، ومهما كان عمل السيناريو فهو فى النهاية عمل ثقافى والثقافة لا تستغنى قط عن القدوة. وأنا أكتب القصة ولكنى أؤكد لك أننى فى كل عملى الأدبى والثقافى – بل العلمى مدين لجيل العقاد وطه حسين والمنفلوطى وعبد الرحمن الرافعى ومن إليهم، فهؤلاء هم القدوة ونحن أخذنا منهم وسرنا فى الطريق لأن الثقافة لا تستغنى قط عن القدوة كما أن أى صنعة لا تستغنى عن (المعلم). ولكن الأمور لا تصلح قط دون قدوة لأن القدرة هنا لا تقتصر على العمل أو الفن، بل هناك الأخلاقيات والتصرفات وأنا كنت أحضر جلسات العقاد وأحمد حسن الزيات وطه حسين وأرى وأسمع كيف يتصرفون وكيف يتكلمون وآخذ عنهم فى ذلك كله. وهذا كلام تسمعه من كل أبناء جيلى: نجيب محفوظ، وزكى نجيب محمود، وعلى الراعى ومن إليهم فنحن الجيل التالى لجيل من نسميهم بالعباقرة أو الاعلام.

فقاطعنى قائلا: مادمت قد ذكرت نجيب محفوظ فصدقنى إنه لا يتدخل فى عملنا بكلمة، وأنا يعطوننى قصة من قصصه لا تزيد على ست صفحات فأعمل منها سيناريو فى خمس عشرة حلقة.

– يا سيدى دع الأستاذ نجيب محفوظ على جانب فهذا قصاص موهوب ومحترف، وهو يكتب الكثير جدا ومن كل نوع فى هذا الفن، وكل ما يكتبه مطلوب وهو يعطى كل يوم تصريحات بإخراج قصص أو روايات، وليس لديه بطبيعة الحال وقت لمراجعة ما تكتبونه كله، ثم إنه يرى أنه روائى قصاص عالمى ومهمته ومسئوليته فيما يقول هى الكتابة، أما ما تعملونه بما يكتب فهذا عملكم ولا يؤثر على طبيعة قصصه. فإن قدره ومكانته فى الفن والأدب محفوظة، وليست محل مناقشة أو نزاع فلا تقسنا عليه أرجوك فأنا مثلا مؤرخ وهذه هى حرفتى وحياتى، وما عدا ذلك فجانبى، وأنا أكتب القصة بعناء شديد وأراجعها عشرات المرات بعد أن أتأكد أنها صالحة ومقبولة من الناس، وأنا رغم طول معاناتى للكتابة لا أقدم للنشر شيئا إلا بعد عناء شديد، وهذا هو الذى تعلمته من العقاد، وحقا إن العقاد كان موهوبا جدا والموهبة كانت تجعل التجويد أسهل بكثير عليه مما أجد فى نفسى، ولكنه قطعا ما كان ينشر شيئا إلا وهو متأكد تماما أنه جيد بل ممتاز، وأنا أسير فى آثاره فى كل عملى تقريبا فهو القدوة وهو المعلم ولكنى دائما أحسب حساب الفرق بين موهبته العالية وموهبتى المتواضه، ولهذا فإننى أهتم جدا بأن يظهر ما أكتب ولو فى صورة قريبة جدا مما كتبته، أما أن تخترع أنت قصة وتضيفها إلى قصتى فتفسد القصتان لمجرد أن تزيد عدد حلقات المسلسل إلى سبع فأنا أرفض ذلك وأرى ألا حق لك فيه.

قال بدون أكتراث: على أى حال أنا كتبت السيناريو وسلمته وأخذت أتعابى، فإذا شئت أنت أن تعمل عملا آخر فأنت حر والسلام عليكم.

قلت: أنت على حق فيما قلت، فإن المهم عندك هو الأتعاب، وما دمت قد حصلت عليها فقد انتهى الأمر بالنسبة لك. ولكن قل لى يا أخى: ماذا قرأت من أعمال نجيب محفوظ؟

– كل شىء.

– لا يبدو ذلك مما كتبت. هل قرأت مثلا (بداية ونهاية)؟

– أقول الحق، هذه لم أقرأها

– هذا يكفيني.

وبعد ايام كنت فى التليفزيون، وتحدثت فى الموضوع فقال لى الموظف المختص.

– أنت على حق فى كل ما قلت، ولكنك ترى أننا دفعنا لهذا الكاتب أتعابه، ولن نستطيع أن ندفع أتعاب سيناريو ثان لهذه القصة.

قلت:

– أنا يا أخى لن آخذ منكم أتعابا.

– هذا لا يحل الإشكال، لأنهم سيسألوننا: كيف دفعتم أتعاب سيناريو لم يخرج، ونحن يا أخى علينا مفتشون ومراجعون، فدعنا من عملك هذه المرة أرجوك، وفى المرة القادمة سنأخذ منك السيناريو مكتوبا بيدك.

ورأيت الا فائدة فى الكلام، فتركت الموضوع وانصرفت وظهر المسلسل كما كتبه هذا الشاب، وضاعت قصتى.

□□□

وفى جريدة الأهرام بتاريخ ٣٠ يناير الماضى (١٩٩٠م) قال أنيس منصور فى إحدى تحفه التى ينشرها فى جريدة الأهرام تحت عنوان (مواقف) وقال لى الأستاذ محمد عبد الوهاب هل رأيت؟ هل سمعت؟ لقد عشنا وسمعنا مذيعة فى التليفزيون تقول لمطربة صغيرة: وأنت يا سيمون كيف تنهضين بالأغنية الحديثة؟ تقول كمان للمذيعة المثقفة! وكيف تقول لمن ليست مطربة بعد: كيف تنهضين! هى التى تنهض بالأغنية الحديثة، هى التى لم تنهض بشخصها مطلوب منها أن تنهض، أى أن تحدث نهضة فنية من أول أغنية لها.

ويقول أنيس منصور بعد ذلك: (يا ترى ما الذى تقوله هذه المذيعة إذا قابلت فيروز أو نجاة الصغيرة أو صباح أو أعظم صوت خلقه الله: المغنية الفرنسية ميرى ماتيو؟ ولا يلوم أحد المطربة الناشئة سيمون إذا وضعت ساقا على ساق، ثم مدت واحدة منها وأخرجتها من الشاشة وصدمت بها مئات الملايين وقالت: أنا من رأيى.. إلى آخره.

ثم يقول: تصور مذيعا آخر يسأل تلميذا كتب قصة قصيرة: وأنت كيف تخلصنا من طغيان العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وشوقى والمتنبى؟ أو مذيع آخر أمام طالب فى مدرسة الهندسة التطبيقية قد اخترع محبسا للحنفية لا يصدأ فيقول: طبعا أنت رأيت الكوك الفضائى الأمريكى الذى غطوه بقوالب طوب من الفخار، لأن الطوب أقدر على احتمال الحرارة العالية، ونحن الذين بنينا الأهرام من الحجارة والمقابر الفرعونية من الطوب وأفران الحديد والصلب من الطوب كيف ننهض بصناعات المفاعلات النووية حتى لا يكون لها رماد مشع إذا إنفجرت مثل المفاعل الروسى فى شرنوبل، ويقول لى الموسيقار محمد عبد الوهاب: فما كان من المطربة التى سوف تنهض بالأغنية إلا أن قدمت نموذجا لغناء النهضة (تقول فيها) بابا هايولو هاها بابا.. هوهو! وكان ذلك نشيد النهضة المباركة للأغنية الجديدة.. مذيعة ساذجة مهرجة لم تعرف أنها أهانت ملايين المشاهدين. ثم يقول أنيس: (هناك حدود للمجاملة و التشجيع، فلا يقال لمن كتب قصة واحدة أو كتابا واحدا أو أغنية واحدة يا أستاذ، يا عظيم! لقد انتظرناك لكى تنقذنا مما نحن فيه، إلى آخر التهريج الذى مكانه التليفون، وليس التليفزيون أو ليس له مكان).

□□□

وأنا أقول للأستاذين محمد عبد الوهاب وأنيس منصور إن السبب فى ذلك كله هو انعدام القدوة عند هؤلاء الشبان جميعا فلا المذيعة أخذت شيئا

عن المذيعين والمذيعات الكبيرات اللاتى سبقنها، ولا المذيعون أخذوا شيئا عن كبار المذيعين وهؤلاء جميعا ومثلهم فى ذلك صغار الكتاب والمسألة هنا مسألة عافية وربما واسطة أيضا، وقد جاءت المسلسلات فأفسدت علينا الدنيا، والإذاعة والتليفزيون فى حاجة إلى شىء هائل منها وليس لدى المسئولين هناك وقت كاف لقراءة الحشد الهائل الذى يتلقونه ولا أدرى والله كيف يختارون منه لأننى أراهم يأتوننا بمسلسلات لا أعرف كيف أصفها، وفى أيامنا هذه يذيعون مسلسلا نجمته الرئيسة السيدة أمينة رزق ولا أدرى والله كيف قبلت هذا الدور التى يتنافى تماما مع التقاليد الجليلة التى ورثتها عن فرقة رمسيس والمسارح الكبرى التى عملت فيها لأنها هنا تمثل امرأة تصغر عشرين سنة على الأقل من سنها الحقيقية، والمخرج عبث بوجهها وملامحها كما شاء، ولا أدرى كيف قبلت ذلك ثم يبلغنا أن مخرجا آخر عرض عليها دورا اشترط فيه أن تتصور أمينة رزق بملابس تدريب قريبة من المايوه فرفضت، وأنا أرى أنه غير ملوم فى ذلك العرض لأن أمينة رزق مادامت قد تخلت عن تقاليدها فهى مسئولة عما يجرى عليها، لأن الفن والصنعة وكل عمل يعتمد على العلم والإحساس يقوم أساسا على القدوة، وعلى أساس القدوة الصالحة تبنى ما تشاء أما بغير قدوة فأنت تبنى على الهواء، والبناء كله ينهار لأول صدمة.

وأنا شخصيا أتانى شاب أنشأ دار نشر وطلب إلىّ مقدمة لكتاب نزهة المشتاق للأدريسى فقلت له وأنت كيف تمد يدك على هذا الكتاب لقد نشرناه فى إيطاليا والذين اشتركت معهم فى النشر ناس محترمون جدا ولو أنك أستأذنتهم فى إعادة الطبع فما أظن أنهم كانوا يرفضون لأنهم فيما أعلم – لم يطبعوا أكثر من خمسمائة نسخة وتوقفوا عن إعادة الطبع لقلة المال، قال ولكنهم طبعوه فى بيروت قلت أهل بيروت أحرار فى أن يعملوا ما يريدون فهؤلاء ليس عندهم قانون ولا حكومة تطبق القانون والمسالة فيما يتعلق بنشر الكتب ينطبق عليها وصف السرقة، ولكننا يا أخى بلد محترم

فيه قانون وحكومة تنفذ القوانين. ولنا كذلك تقاليد أدبية وفنية، ونحن نسير على قواعد وأصول فكيف تظن أننى أتخلى عن ذلك كله فى مقابل ألف أو ألفين من الجنيهات، ومع ذلك فقد طبع الرجل الكتاب واستغنى عن المقدمة التى كان قد طلبها منى.

وهذا الرجل فعل ذلك لأن المسألة فى أيامنا أصبحت هبشا ونبشا وبيعا للضمير فى سبيل المال، ولا أدرى والله ماذا يفعلون بهذا المال كله. وأنا أعرف رجلا عنده ملايين ويحرق نفسه فى سبيل الحصول على ملايين أخرى وقد زرته فى بيته وأكلت على مائدته، فما وجدت عنده فى بيته أو على مائدته شيئا أكثر مما عندى. والذى عندى بسيط على قدرى وأنا مرتاح به وقانع بكل ما يأتينى فما الذى يفعله صاحب الملايين بالملايين؟.

هى حمى إذن وسبب الحمى هو التخلى عن التقاليد. والقدوة. فكل شىء فى الهواء. وقد كتب أنيس منصور كتابًا رائعًا عن صالون العقاد. وقد استمتعت به واستمتع به جيلى وهو جيل القدوة وأفدنا منه فائدة كبرى وأؤكد لك أن أبناء هذا الجيل الذين قصدهم أنيس منصور ومحمد عبد الوهاب لم يقرءوا هذا الكتاب ولماذا يقرءونه إذا كانت المسألة عندهم عافية؟!